

## تطورات العصر الحديث

### في الخلق السياسي

للاستاذ محمد لطفي جمعة

—————

نشرت مجلة أوروبا Europe التي يشرف على تحريرها الأستاذ رومان رولان Romain Rolland أشهر كتاب فرنسا القيم في بلدة نيوفيل على شاطئ بحيرة ليمن بسويسرا ، دراسة متروكة من حوادث السياسة التي استجذبت في أوروبا بعد ظهور الفاشية والنازية ، وألم فيها بحث جليل عن حياة هتلر وموسوليني بقلم كاتبة أسرار سنيورينا ليندا رينا لدى وهي التي خدشته بضغ سنين ، فأكثرنا تلخيصها لمجلة الرسالة التي يعد دخولها في عالمنا السابغ فتحة جديدة في العلم والأدب والثقافة المصرية ( ل . ج )

في تاريخ الأمم وأخلاقها ساعات حاسمة ومواقع فاصلة تميز عن الأخرى وتفضلها بالطريقة التي تقابل بها صروف الدهر في تلك الساعات وهاتيك المواقع. ومثلها في ذلك مثل الأفراد لدى الملأ والشدائد ، فترى أمة يهولها الاعتداء الأجنبي عليها وبفت في عضدها ويضعف من نخوتها وينهك من إرادتها ، وما تزال تسحط وتهالك وتنحل عناصرها حتى تتوارى وتهلك. وهذه عاجزة عن الكفاح في سبيل الوجود وهي أمة كسب عليها الفناء. ولا فرق في ذلك بين أمة قديمة أو أخرى حديثة ، عريقة أو طارئة ، متدينة بدين منزل أو وثنية ، شرقية كانت أو غربية. وهناك أمة ترداد قوة كلما تعرضت للآلام ، وتنمو فيها الفضائل الدفاعية والهجومية كلما اعتدى عليها الأغيار أو قبض على خناقها القرباء والغرماء . تتيقظ فيها فكرة المجد كلما حاقت بها الأخطار ، وتذب فيها حيوية جديدة كلما حاول عدوها إدناءها من الموت ، وتسرى في أعضائها دماء جديدة وتجري في أعوادها أمواه الحياة

لا نريد أن نعرض للنظامين النازي والفاشي بخير أو بشر ، لأننا لا نريد أن نزل بهذا البحث إلى مستوى الجدل ، فإننا نحب أبداً أن نخلق فوق الحوادث الراهنة <sup>(١)</sup> وإن كنا نحترم السياسة

(١) ينشر إلى كتاب au dessus de la mêlée فوق نطاق الحركة الذي ألفه أيام الحرب الكبرى

ونقدتها ، ولكننا نعلم أنها كثيرة الزائق ، ومواطن التحليل فيها تدق من الخطأ الذي قد لا يغتفر . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن النظام الفاشي الذي ابتكره السنيور بنتو موسوليني المعروف في العالم باسم دوتشي أي الزعيم ، وتبع آثاره هيرادولف هيتلر المعروف في العالم باسم فوهرر أي الزعيم أيضاً ، قد أثبت وجوده وقدرته على الحياة فقدم بذلك البرهان التاريخي الذي لا بقاء لنظام اجتماعي أو سياسي بدونه ، كما قدمت حكومة السوفيت برهانها منذ سنة ١٩١٧ إلى يومنا هذا . وفوق هذا قد أثبت هذا النظام والقائمون به أنه أدى لوطنهم خدمة جلي وقضى على شرور كثيرة وجلب خيراً وفيراً ودلّ بذلك على أنه النظام الصالح للوطن الايطالي ، نظام المستقبل المحب للخير despote bènevolent ، وقد أثنى عليه كل من شهدته وجنى شيئاً من ثماره داخل إيطاليا. وقد قلب إيطاليارأساً على عقب ، وقال بعض عبثيه إنه جعل من بلادهم جنة على الأرض ، وإن الذين زاروا إيطاليا قيل تفشيه يكادون لا يتعرفونها بعد انتشاره وقيامه وتسلطه ، لأنه صبح كل شيء بصبغته التي أساسها النظام المطلق والأمن المطلق والأمانة المطلقة ، ولكن هذا النظام العجيب الذي وحد كلمة الأمة وجعلها كرجل واحد وأخضعها لرجل واحد وعلق سائر آمالها برجل واحد ، قد حكم عليه ذووه بأنه نظام قومي ، حتى خطب الدوتشي نفسه فقال « إن الفاشية بضاعة لا تصلح للتصدير ، ولا تضمن أرباحها خارج حدود إيطاليا » ولا نعلم إن كان قال هذا القول تواضعاً أو حقاً للآمم على الاقتداء به ، ولكن وجب علينا أن نصدقه لأن رب النار أدرى بما فيها . وإن كان هذا النظام قد انتحل هيتلر بتحوير كبير وطبقه في بلاده حتى بذ التلميذ أستاذه . ولم نسمع بصاحب مذهب سياسي أو اجتماعي قبل الدوتشي يحجر على مذهبه ويحرم عليه الخروج من كسر بيته ، بل تعود أصحاب المذاهب أن ينسبوا إليها الصلاحية المطلقة والقدرة والنجاح في كل زمان ومكان ؛ وإذن لا بد أن يكون سنيور موسوليني قد ذكر هذا الرأي عن مذهبه لحكمة خفيت عن سامعيها في حينه . وإلا فكيف كان اغتباطه بالنازية وانحادهما وابتكارهما محور برلين روما ، ثم تشجيع فرانكو في وطنه حتى ذاق الأسبان بأس بعض وخرت بلادهم حتى صارت يابا .

ليكولاما كيا فيلي . وقد صدق حسابه أنه يصلح شعبه بتنفيذها ووجد معونة كبرى من الأسرة المالكة ومن أصحاب المصانع والكنيسة ، وتشجيعا من الشبان الطامعين إلى الحلول محل كهول السواس وشيوخها ، وكانوا إذ ذاك متلهفين على القوت والمجد ، وكان بعضهم يرقبون النقد المنتظر يظهر فجأة في أفق الوطن وكان إذ ذاك خاليا في تلك الفترة من العطاء القادرين على حمل أعباء الزعامة . فوقع اختيار الحظ على موسوليني . كان بنيتو موسوليني في أول أمره صحفيا اشتراكيا متطرفا ، يبحر في مجلة « أناتى » إلى الأمام ، لسان حال الحزب الاشتراكي وزعيمه فيرو أحد أساتذة الجامعة . ولما أعلنت الحرب سام في أوائلها ، ثم لم ترقه فهاجر إلى سويسرا حيث ذاق مرارة الفاقة والتسكع ، وعاد إلى وطنه يجر أذيال الخيبة فحدث له ما حدث لاسكند كيرنسكي في بترسبرج سنة ١٩١٧ . غير أن الفرق بينهما أنه استمر ونجح حيث تردد كيرنسكي بخاب . فهو ابن ثورة اقتصادية قلب ظهر المحن لحزبه في اللحظة الأخيرة .

ولا يفوتنا أن أوروبا أصبحت بعد الحرب مباشرة نهبا بين الديكتاتوريين فظهر من طرازهم بريمودي ريفيرا في أسبانيا ، وبانجالوس في اليونان ، وبلودوسكي في بولونيا ، ونجدوا عن ديكتاتورية مزعومة في فرنسا ورشحوا لها أندريه تارديو الذي كان رئيس وزارتها . ففي ظلال هذه الديكتاتوريات وفي مشار النقع الذي طاف بالأجواء قامت الفاشية وأضافت إلى قميصها الأسود درع الديكتاتورية الفولاذي .

وتضافرت بعض الظروف التي لم تكن في الحسبان وهي نتيجة الحالة السياسية العامة في أوروبا فجعلت لإيطاليا وألمانيا مكانة توشك أن تضع في يدها ميزان السياسة الدولية ، ولا سيما بعد فوزها الأخير . وراخت إنجلترا وفرنسا في تأييد نفوذها لانشغالها بالمسائل الداخلية . وجدت في الشرق حرب الصين وتفوق اليابان فانضمت إليها ألمانيا نكابة في روسيا . ورجعت أوروبا في غير وعى إلى سياسة الاتفاقات السرية . ولعل التناطح بين الشعوب ليس إلا تطاولا بين الزعماء ومظهر القوة لإرادتهم ودليلا على رغبتهم في الفوز والانتصار على مضاجعهم في ميادين المجد وعلو الصيت وضخامة الشهرة . ولدى كل أمة من الأمم مؤثرات وعوامل فكرية تؤثر في نفوس بنيتها ولا تكون الزعامة الصحيحة إلا لمن يعرف استعمال هذه المؤثرات والعوامل التي تتحكم في النفوس ؛ فإذا ما اهتدى الزعيم أو المرشح

باسم مناصرة الفكرة الفاشية النازية . وأظن بعض النافذين المموافين كتبهم فقالوا إنه نظام يعلق الأمة بأهداب رجل بينه ، فإن شاخ أو مرض أو مات تعطلت الإدارة الحكومية وتلكأت في انتظار ظهور خير خلف لخير سلف ، في حين أن الواجب يقضى بأن تكون القوانين العامة والخاصة هي الأداة الصالحة للحكم بدون اعتبار الأشخاص . ومهما يكن حكم المستقبل على الفاشية فإن الكثرة من الكتاب الموالين لها أجمعت على تقمعا في مسقط رأسها وخالفها القلة المدركة من خصومها . ومنهم من أودى وهاجر باختياره أو نفي مرغما ؛ ومنهم من ألف كتباً صوب فيها مهام تقده إلى الفاشية . وإن يكن في المظاهر ما يؤم بأن النازية الألمانية تقلد للفاشية الإيطالية ، فلا يصح القول بأن الهتلرية نوع من الفاشية أو تقليد لها ، وإن كانت تشبها في تفرد رجل واحد بالسلطة . ولكن الذي يفرق بينهما هو أن الأولى قامت باسم الإصلاح الداخلي ونصرة ذوى رؤوس الأموال ومقاومة الاشتراكية ومطاردة العمال الذين احتلوا المصانع الإيطالية في سنة ١٩٢٢ وقدم زعيمها فروض طاعته للملك وجامل الكنيسة الكاثوليكية وانضوى تحت لوائهما . أما النازية الهتلرية فاشتراكية وطنية دينها عظمة دوتشيلاند ومجدها في غلبة الرايخ الثالث ، وقامت باسم حماية الوطن من الاعتداء الأجنبي والخللاص من قيود معاهدة فرساي وتنفيذ خطط بسمارك القديمة ، من التوسع في أوروبا والشرق وتخطيط الشيوعية . وإذن قامت الهتلرية لتكون وسيلة لها غاية تخالف غاية الفاشية . دمع عنك الاختلاف في أخلاق الأمتين وتاريخهما وعناصر حياتهما . وكلاهما قد هضمت حقوق الفرد وجعلت الدولة هدفاً أسمى وإن كان في ذلك تأخير « المواطن » والتضحية به ، مما يختلف عن المدى الذي وصلت إليه الحضارة الحديثة في تفكيرها وسياساتها ومجموع مبادئها ، ولا سيما عند الشعوب الإنجليز سكسونية والتيتونية

وإذن لا تكون الهتلرية وليدة الفاشية ولا شقيقتهما الصغرى ، لأن الهتلرية ثمرة التاريخ الحربي والسياسي في ألمانيا ، وخلاصة نوع من الفلسفة الروحية أو التصوف السياسي منشأه مجامع ميونيخ السرية التي بدأت أثناء الحرب . أما الفاشية ففكرة مبتكرة قامت في ذهن رجل واحد نتيجة لإدماجه قراءة كتابين : « وعود الزواج » لباتروني (١) وكتاب الأمير

(١) لا يزال الصوتى يحتفل كل عام بعودة ظهور هذا الكتاب .

للزعامة إلى تلك العوامل تمكن بسهولة من جمع الأفكار وتوحيد الإرادات الفردية حول فكرته الخاصة وإرادته . وهيهات أن ينجح الزعيم ما لم يكن مفتوناً بالفكرة التي صار داعياً إليها حتى تستولى عليه استيلاء لا يرى معه إلا الفكرة التي ينادى بها ؛ وبدون هذا الإيحاء الذاتي لا يمكنه أن ينجح في التأثير في أذهان الجماهير ، لأنه لا شيء يحرك همها مثل مظهر الإيمان الذي يبدو على شخص الزعيم . وإن يكن بعض الزعماء أو قادة الفكر ليسوا من التوابخ في صدق الآراء وصحة النظر ، إلا أنهم من أهل الهمة وذوى الإقدام . والفرق بين الفيلسوف والزعيم أن الفيلسوف كثير التأمل ، والتأمل يؤدي إلى الشك ، والشك ينتهي بصاحبه إلى السكون دون الحركة ، لأن الحركة لا تصدر إلا عن تصميم الإرادة وهو ثمرة اليقين ؛ أما الزعيم فلا يتأمل لأنه لا يشك ، وحينئذ لا يركن إلى السكون ؛ وإذن تكون قوة الإرادة للزعيم أنفع من سلامة الرأي وصدق النظر وحسن التبصر في العواقب ، ولكن الذي يفقده الزعماء من تلك الناحية تعوضه عليهم قوة اعتقادهم في سلطانهم على الجموع وتلك الجموع لا تصنى إلا لذوى الإرادة النافذة الذين يتسلط عليهم العقل الباطن ويملك زمامهم . فإذا ما أصبح صوت الزعيم مسموعاً من جماعة ، اندمجت إرادتها في إرادة الزعيم وتناست شخصيتها والتفت حول الزعيم ذى الإرادة المتحدة .

يسألون عن الطنبيان والحبروت والاستبداد كيف نمت في اليناثات الدكتاتورية والزعامة في أول أمرها لا تحتاج إلى الاستبداد أو الطنبيان ، والمشهد أن الذين قاموا بأدوار الطغاة أفراد من المؤمنين الضعفاء الذين ليس لهم حول ولا طول سوى العقيدة والإيمان . فإذا ما وصل الزعيم إلى غايته احتاج جحماً إلى الاستبداد ليستبقها .

ويعتمد الزعماء من هذا الطراز في تبليغ دعوتهم على الكلام والخطابة والكتابة ، وزعماء العالم اشتهروا بالفصاحة وقوة التأثير في الجماهير . وعمدتهم على تكرار جوامع الكلم لترسخ في أذهان سامعيها . وإذا رجعنا إلي خطب زعماء الفاشية

والنازية فلان نجد الانفس المعاني أفرغت في قوالب شتى لملمهم بغير زهم وإدراكهم الباطني أن التكرار يترك أثراً عميقاً في أذهان الخاصة والعامة على السواء . فالزعيم حاذق في حفر فكرته في أذهان أتباعه . وتبدأ الأفكار في الطبقات النازلة ثم ترتقي إلى الطبقات الوسطى فالعليا مثل انتشار أفكار الثورة الفرنسية وارتقائها من طبقات الشعب إلى الوزراء والعلماء . وكذلك الأديان فإنها تنتشر أولاً عند المظلومين والمحاييج والمحرومين والمعوذين إلى استعادة الكرامة والحقوق ، وهذا سر انتشار النصرانية والبوذية بين الضعفاء والفقراء . وقد سادت الاشتراكية أولاً طبقات العمال حتى وصلت إلى العطاء فصار منهم اشتراكيون متطرفون . وكان عدد الذين دخلوا في زمرة الإسلام من الأغنياء والكبراء محدوداً ثم أقبل عليه كل فقراء الجزيرة العربية وعاصمتها الوثنية (مكة) لأنه كان في أول أمره دين مساواة فاستغلوا بسلطانهم<sup>(١)</sup> . وقد أدت الأحوال الطارئة في أوروبا ، وضعف الحكومات في بعض الممالك بعد الحرب وسقوط العروش وترزعزع الثقة في الآراء القديمة ، إلى حلول بعض الزعماء محل السلطات الحاكمة ومحو تلك السلطات وتلاشيها في أشخاصهم

محمد لطفي جمعة

### فرصة عظيمة للسادة الأشراف ومحبي أهل البيت

تفيض من كتاب بحر الأنساب من منبه إلى منبه قرناً صاعداً

« كتاب بحر الأنساب العالمي من زمن الرسول إلى وقتنا هذا تأليف الامام النجفي وشرح السيد محمد مرتضى الزبيدي والعالم السيد حسين محمد الرفاعي الذي اشتمل على أسماء وتواريخ وأصول ومناقب مرموم الأشراف في جميع القطر المصري وبلاد المغرب وسراكن وتونس والجزائر وطرابلس ومكة والمدينة والبلاد العربية والمند والمين والشام والعراق والعجم والحبيشة والسودان وتركيا والتركس والأندلس وجميع بقاع الأرض فما من شريف على وجه الأرض إلا وأسماء أجداده مدونة ومثوبة في هذا البحر كان يباع بمجنيه مصرى ولكن إكراماً لموسم الحج من يرسل خمسين قرشاً صاعداً أو ثمانين فرنكاً فرنسياً بطريق الوسته أو نقوداً بأسم ووعنون فضيلة السيد حسين محمد الرفاعي بدار الكتب المصرية بمصر القاهرة يرسل إليه نسخة من كتاب بحر الأنساب ثلاث أجزاء في مجلد واحد خالصة أجرة البريد وكل تحويل بالبلغ المذكور بغير اسم فضيلته لا يلفظ إليه فاليدار البدار قبل نفاذ النسخ الباقية منه وقبل شياح هذه الفرصة الثمينة - مع العلم بأن هذا الكتاب الثمين تكلم أيضا عن أصول العرب وقلابهم من لدن آدم ومبدأ خلق الدنيا »